٣ - الدوق دى لاروشفوكو

La Rochefoucauld

للدكتور حسن صادق

ورأى لاروشفوكو أن يرضى الدوقة فانضم الى اخيها ودارت رحى القتال . وفى ٧ ابريل عام ١٦٥٢ انتصر جيش الملك فى (بلنو) . وأثناء ذلك عاد مازاران الى فرنسا وبدأ يستخدم الحيلة والدهاء فى إخماد الثورة ، وعرف لاروشفوكو أن الدوقة أعرضت عن حبه وكلفت بالدوق دى نيمور فآلمه ذلك جد الألم . وقد ذكرت حفيدة الدوقة فى مذكراتها أن لاروشفوكو كان شديد الرغبة فى قطع هذه الصلة والخلاص من هذا القيد . واستدلت على صحة قولها بأحدى مواعظه : « لما تمل الحب ، تغتبط اذا خان الحبيب عهد وفائه ، لأنه بعمله هذا يحلنا من عهد وفائنا له » . ولكن الغيرة بقيت تخز قلبه زمنا طويلا لأنها كما قال فى موعظة أخرى : « تولد مع الحب ولا تموت فى كل حالة معه »

نال اعراض الدوقة منالا كبيرا من كبريائه ، ولكنه استمر فى القتال يشد أزر اخيها . ثم حدثت موقعة حى سان انطوان ، وقتل فيها كثير من النبلاء ، وأصيب لاروشفوكو برصاصة فى وجهه كادت تقضى على بصره ، فنقل الى مستشفى لبانكور وكان هذا آخر عهده بالحرب الأهلية ، وجنبه هذه الاصابة عار الاشتراك مع كونديه فى قيادة جيش من الاسبان ضد بلاده

ونذكر بهذه المناسبة أن عهد الحرب الأهلية من أسوإ العهود التى مرت بها فرنسا ، فقد أظهر النبلاء أثناءه نزقا كثيرا ، ونبغوا فى فن الدسيسة ، وكشفوا عن الأثرة المتأصلة فى نفوسهم ، وجمعوا كل جهودهم فى مصالحهم الذاتية ، وتكالبوا على متع الحياة فى جشع وضيع ، وكاد بعضهم لبعض فى سبيل الالقاب والرتب ، وأسالوا الدماء ، وأسلموا البلاد للفوضى تفتك بها دون أن يروعهم وازع نفسانى . كان كونديه ولاروشفوكو ومن اليهما فى ذلك العهد قطاع طرق ورؤساء مناسر ، تنهب وتحرق تحت الاعراض فى مرح وحشى . واهتبل النبلاء فرصة الاضطراب فعاثوا فى البلاد دثابا إقطاعيين ، وساءت حال الفلاح حتى عزت عليه اللقمة التى تحفظ ذماءه ، وامتلأت السجون بالبائسين الذين عجزوا عن دفع الضرائب الباهظة المفروضة عليهم ، ورأت باريس فى عام ١٦٥٢ مائة ألف جائع يهيمون فى طرقاتها ويستجدون أهلها وهم فى أسمال بالية . ولهذه الاسباب فرح الشعب لما استتب الأمر للملك ، ونظروا الى استبداده نظرهم الى نعمة هبطت عليهم من السماء

وأثر هذه الحرب الأهلية المادى ليس بأقل سوءا من أثرها المعنوى ، فقد دفعت الناس فى طريق النفاق والخيانة والأثرة الجامحة ، وكان من نتائجها أن يتهافت النبلاء المتكبرون على قدمى الوزير ما زاران يرجون ويستعطفون فى ذلة وخنوع

ولم تنتج هذه الحرب أثرا طيبا إلا فى الادب والفنون ، وتعتبر نهايتها فاتحة العهد الأدبى الحافل الكبير الذى صقلت فيه العبقرية الفرنسية ، وأصبح الاسلوب فيه عذبا نقيا ، والتعبير لا ذعا دقيقا . وكثير من الذين حملوا السيف وخاضوا غمار هذه الحرب « شادوا صروحا أدبية خالدة ، بعد أن لاحظوا أهواء الناس ورأوهم فى ثوبهم الحقيقى . ومن هؤلاء هذا الكاتب الذى نتحدث عنه

وفى ٢١ أكتوبر عام ١٦٥٢ أصدر الملك لويس الرابع عشر العفو عن لاروشفوكو ، وسمح له بالعودة الى باريس ، ولكنه لم يعد اليها الا بعد وقت طويل قضاه فى الريف هادئا يفكر فى آماله الضائعة ، وأحلامه المتداعية .

الشيخ الفيلسوف

لما فشلت ثورة الامراء واستتب الامر للملك لويس الرابع عشر ، عرف ضروب الاهواء التى تتلاعب بنفوسهم ، واستغلها استغلال رجل قدير ، وجاد على هؤلاء السادة العظماء بأنواع الاحسان الوفير حتى أحالهم الى ندماء متواضعين ، استكانت الاهواء الجامحة بعد انتصار الملكية ، فأخلد الناس إلى السكينة ، وعادت الحياة إلى مجراها النمطى ، وبدأت النساء ينشدن فى « الصالونات » أو بين جدران الاديرة ضروب الانفعال التى كن يجدنها فى نكبات الحرب الأهلية . ولم تعد تفكر الطبقة العالية الا فى قهر « الضجر » مرض الاغنياء الذين لا يعملون ، الذى

استحوذ عليها . يدلنا على ذلك قول مدام دى منتنون : (١) « إنى عاجزة عن أن أبين مبلغ الضجر الذى يعذب العظماء الاغنياء ، والمشقة التى يلاقونها فى قضاء يومهم »

وفى ذلك الوقت عاد بيت رامبويه(٢) إلى فتح أبوابه ، ولكنه لم يلق الاقبال الذى اعتاده قبل الحرب الاهلية ، لأن ربة البيت المركيزة دى رامبويه كانت فى الثانية والسبعين من عمرها ، واضمحلت قواها الذهنية ، وتفرق اثناء الاضطراب الذين كانوا يترددون عليه ، ثم ظهرت فى باريس « صالونات » أخرى أهمها صالون الآنسة دى مونبانسيه ، والآنسة دى سكودرى ، والكونتس دى لافايت ، وصالون الدوق دى لاروشفوكو ، الذى بدأ بعد الشغب يبحث عن السعادة فى الادب والتفكير ، ثم صالون المركيزة دى سابليه .

وكان كل صالون يميل الى نوع خاص من الادب . فصالون الآنسة دى سكودرى يميل إلى وضع المعانى الغزلية الرائعة فى شعر نثير ، وصالون الآنسة دى مونبانسيه يحب الصور الشخصية ، وصالون المركيزة دى سابليه يتعشق عمل المواعظ ، أما بيت رامبويه فكان مولعا بالادب وفروعه جميعها

وفى أحد الايام ، وكان ذلك فى عام ١٦٥٨ ، طلبت الآنسة دى مونبانسيه من الحاضرين فى مجلسها أن يرسموا صورهم كتابة فى مقالات موجزة . ثم تناولت القلم ووصفت على القرطاس أجزاء وجهها ، ثم قوة ذهنها ، ثم أهواء نفسها وميولها وأخلاقها . وقلدها جميع الحاضرين ومن بينهم لاروشفوكو . ثم جمعت هذه الصور ونشرت فى عام ١٦٥٩ . وكانت صورة لاروشفوكو المشهورة بالحروف الأولى من اسمه أول عهد الجمهور الفرنسى بكتابته . وسنذكر تبذا من هذه الصورة عند الكلام على أخلاقه وميوله

وكانت جماعة المركيزة دى سابليه يعالجون فى صالونها الموضوعات الجدية ، ويتحدثون عن ديكارت والمنطق والاهواء الانسانية ، وقبل أن يتفرقوا يحاول كل منهم أن يضع خلاصة المناقشة فى جمل قصيرة فصيحة ، أى يضعها فى حكم أو مواعظ . وانتشر هذا الميل إلى الحكم حتى بلغ الريف . وفى عام ١٦٦٠ كتب لاروشفوكو من (فرتى) إلى المركيزة يقول « هل لاحظت أن الميل إلى كتابة حكم ومواعظ يعدى كالزكام ؟ هنا فى الريف كثير من الناس انتقلت إليهم العدوى وشغفهم هذا الميل حبا » . وصالون هذه المركيزة هو الذى ملك على لاروشفوكو عقله وليه ، واستأثر به دون الصالونات الأخرى

وفى عام ١٦٦١ أصيب بمرض النقرس ، فلازم بيته فى شارع السين بباريس ، وجعله « صالونا » يجتمع فيه عظماء الفرنسيين وأدباؤهم . وفى هذه السنة اعتزلت الدوقة دى لونجفيل الاجتماع واتجهت الى العبادة والتكفير عن سيئاتها ، بعد أن هجرها صاحبها الدوق دى نيمور ، ومات قتيلا فى مبارزة وقعت بينه وبين الدوق دى بوفور

وكان لاروشفوكو قد بدأ يكتب مذكراته بعد أن وضعت الحرب الأهلية أوزارها فى لهجة المؤرخ الرزينة ، ويذكر فيها الأسباب التى حملته على الاشتراك فى هذه الحرب ويردها كلها الى نكران الجميل الذى بدا له من الملكة آن دوتريش والدوقة دى شفرير والدوقة دى لونجفيل . وأطلع عليها أحد أصدقائه فى عام ١٦٦٢ فنصح له بعدم نشرها حتى لا يغضب الملك والاشخاص الذين ورد ذكرهم فيها ، فقبل نصحه ، ولكن صديقا آخر نقلها مشوهة دون أن يعلم المؤلف ونشرها فى هولانده فى عام ١٦٦٤ ، فأثارت لغطا كثيرا . ويقول الدوق سان سيمون (١) : « لما اطلع أبى على هذه المذكرات ملكته سورة الغضب ، وتوجه فى الحال إلى المكتبة التى تبيعها ، وكتب على كل عدد منها عنوة واقتدارا « كذب المؤلف » وكاد الملك يتدخل فى الامر ، ويسىء الى لاروشفوكو لولا حظوة ابنه البكر فرنسوا السابع لدى مولاه .

يتبع

حسن صادق

(١) ١٦٣٥ — ١٧١٩ سيدة فرنسية من علية القوم تزوج منها الشاعر المشهور سكارون (وكان شيخا) فصار الخلفة ، ولكنها أخلصت له حتى مات . ثم أحبها لويس الرابع عشر ، وسحرتها سوالخلق ، ورجاحة الفكر ، وعذب الحديث ، وطهارة الذيل . ولما ماتت زوجه فى عام ١٦٨٣ تزوج من مدام دى منتنون سرا فى السنة التالية . وبعد موته لجأت الى أحد الادرة ، وظلت بين جدرانه حتى ماتت ودفنت فيه ولها رسائل قيمة مشهورة فى الادب الفرنسى

(٢) هذا البيت مشهور بصالونه الادبى . وكان يغشاه الكتاب والشعراء والعظماء الذين عرفوا بالخلق القويم والسيرة الحسنة . وكان له أثر كبير فى الاخلاق والادب الفرنسى فى النصف الأول من القرن السابع عشر

(١) ١٦٧٥ — ١٧٥٥ عظيم من عظماء الفرنسيين . فى عصره ذو دراية واسعة بفنون السياسة والحرب والمال . وكان دقيق الملاحظة رشيق الاسلوب قضى فى كتابة ذكراته ستين عاما ، فجاءت تاريخا شائقا لعصره تصور للقارىء أبلغ تصوير ، وتملأ هذه المذكرات عشرين مجلدا